

لماذا نصدف عن منظر قبيح في الطبيعة . . ولا نرغب عنه وهو على لوحة مرسومة ؟ باعتباري ان المنظر المرسوم لا يُجسم القبح الذي نراه في الطبيعة ، فهو قبح أو شوهة ناقصة ؛ فنظر جرح ملطخ

قسم في الفن

بقلم يحيى الدين سمر

الفن نتيجة أثريين : العالم الخارجي ، والعالم الداخلي . . . فلا نستطيع القول بأن أثراً ما « لاليوت » أو « لورانس » - بما فيها من زعقات داخلية - يصور عالماً ناقصاً ،

لأنه ليس هناك وعي باطني إلا بتأثير عالم خارجي ، فليس معقولاً ان يُخلق « بروفرك » هكذا من العدم ، بلا وشاية خارجية ، فهو موجود بصلعته المضيئة ونفسيته المتضائلة بتأثير الجنس . . وحتى (هاملت) الحامد الذي يفزعه ظل على الجدار فانه لا يمثل تردداً باطنياً مجتاً ، وإنما تؤثر به امتدادات خارجية يظل نهياً لها حتى يجندله السم . .

فالأثار التي تقول بأنها صدى للنفس الداخلية يُثبت بقليل من الإدراك الصافي انها متداخلة في الحياة الحسية . . وكذلك يمكننا القول بأن الآثار التي يغلب عليها نقل الخارج كما هو ، عند « زولا » ومعظم الطبيعيين ، أعمال تمتاز بالدقة الداخلية العميقة . . فما هو المغزى الذي تدفعنا اليه بغي مثل (نانا) . . فمن خلال أحداث الكون العادية المحايدة يتكون الرشح البطيء . . ذو المغزى والعمق . . فان « زولا » حين يتحدث عن أرقه (باريس) الموحلة وعن نساء الليل المريضات بالزهري ، وعن الشباب الذي أنهكه السل ، والذي يقف مدخناً في رقع المصابيح الملتهبة ، وحين يجبرونا في عزم ان نشم معه عفونة الزقاق و تنته ، لا يتركنا هكذا معلقين . انه يدلنا على الاثر الذي يجب ان نستدل به بدون ضلال . وهكذا فانه يشرك المتذوق معه . . انه يبين له الحادث وعليه ان يغوص في العمق الختفي - في وهم الحياة المرهص - كي يجلب المعنى . . انه ليس (كاميرا) تكتفي بنقل مشاهد الطبيعة الجافة الحامدة . ان الكاميرا تصور عاهرة تموت :

انها تجسم اللحظة المعينة التي تنتهي فيها هذه الحياة الدافقة . انها توقف الزمن بالنسبة للعاهرة (بعكس دوريان جراي) ، فليس ثمة تكتكات مستمرة الا في واقع المتذوق ، فهو يجد - للوهلة الاولى - تناقضاً بين الواقعيين ، فليس صورة الكاميرا حقيقة بقدر ما هي تحايل . . فما هو معنى كون متوقف من زمن معين ؟ ان معناه جمود الحياة . . موتها . . عدم

بالدم على ذراع رجل مثلاً في لوحة مرسومة لا يهزنا كما تهزنا الحقيقة . . لأن اللوحة قاصرة عن تمييز الشوهة كما في الجسم الحقيقي : نستطيع شم العفن منها ، ونستطيع لمس الزوجة الحارة للدم ، ونستطيع التحديق في الجرح الفاغر الرطب ، ولكن هذا الصدق الحق يُنتفى فوراً عن المنظر المرسوم مكوّناً وهماً عن جرح . . فالفرق بين اللوحة والحقيقة هو (الوهم) الذي يخلقه المتذوق للأثر . . الوهم غير الحقيقي والذي لا يستطيع التعبير عن الحقيقة نفسها ؛ فاذا استطاع الفن أن يُجسّم لنا الجرح كما هو : بقرفه وإشعاره لنا بالغثيان . . إذن فقد استطاع أن يبلغ الحقيقة . ولكن « الكاميرا » تستطيع أن تصوّر جرحاً يغثينا ويشعرنا فعلاً بالقرف . . فالكاميرا تنقل الطبيعة ، ولكنها لاتعطينا الوهم الذي هو الفن . ان الكاميرا تصور الحادث كما هو ولكنها لاتمنحنا وهم الفن . .

غير أن الفن ليس تعبيراً عن حقيقة الحياة كما هي ؛ إنه زلفى للحياة . . تقرباً واضح لاشعارنا بدفقة الدم والشعور . . فمن هذا التقرب تخرج المفاهيم المتعددة بتعدد الأذواق . . فكلنا يستطيع تشكيل وهم للحياة - وهم خاص حسب فهمه الخاص ولكنه ليس هناك وهم نبادله بالحياة . إننا نصور أشخاصاً قريين للحياة . . فهناك ملايين التصورات عن (الملك لير) وليس هناك تصور يماثل الآخر بالدقة والتشط . .

الفن ليس غاية . إنه طريقة في الحياة ؛ فكما ان الحداد صانع والنجار صانع فان الفنان معبر ، وما هو الفرق الحقيقي بين وهم المقعد في ذهن النجار ، وبين وهم (حاملة الماء) في ذهن (جويو) ؟ ان لكليهما طريقة ما في الحياة ، وسيلة تعبيرية تمتاز بالجدة الدائمة والتطور المستمر . . فليس معقولاً ان المقعد المرهص قبل ألف عام يماثل صورته الآن ، وبالتبعية لا نستطيع مقارنة « بيانو كونشرتو » لوزار . . بـ « بيانو كونشرتو » لرحمانينوف . .

نجاوبها مع الزمن المستمر من دقائق مهولة . ان الكاميرا
تجمد التابع الدائم وتجمده في لحظة جهداً ثابتاً . حركة توقفت
فكانها « ميدوزا » ساحقة .. !

ولكن فن الطبيعيين لا يجمد الحادث كما تفعل الكاميرا ،
ولا يُجري المشاهد كما في الطبيعة وحسب ، بل يدفع خلالها
مغزى المزرقة العفنة التي ينضح منها سم السموم ..
الفن اضافة داخلية لحدث خارجي ... ان بعض النقاد
يعيب على (كافكا) ذاتيته اللاصقة به .. أفتريدون ادباً يصدر
عن فرد .. ثم هو لا يعبر عن فرد ؟ !

ان الذاتية عنده تعني قمة مذهلة .. تعني ان فنه قد انتهى
الى الاشراق الذي يبحث عنه الاديب .. فالفرق بين تحبظات
(كامو) الوصفية في « وقفة وهران » وبين استاذيته الحارقة
في « الغريب » هو فرق بين غلبة التأمل التجريدي على وصف
الترغيبات السطحية للمنظور ..

ان (كافكا) يعبر عن مجتمعه حين يتكلم عن بشر
قتلهم السأم في الكون الغريب .. انه يخلق من العبث الذي
يحتوينا انتكاساً عليه بوعيه . اننا ندرك الرهق الذي نفوس فيه
حين يُطلعنا كتاب أحسوا المشكلة ذاتياً ...
ومن خلال الاحداث الجارية (لجوزف ك.) ينتفض
المعنى المقلق في اذهاننا عن انسان قتله العبث والغموض ...
ان (كافكا) يجرنا للمشكلة رأساً بلا ايماءات منه ..

وكذلك فان جهداً صغيراً من « جاليفر » يكفي كي
تقطع كل الحبال التي ربطه بها رجال دقاق ... وجهده هو
عمل المتذوق الكسول الذي يبرم بالصنعة المحتاجة أناة خاصة ،
فهو يحمل على الرمز لأنه لا يستوعبه ، وهو يسهم بجهد خارق
في قتل كل المحاولات الضخمة التي يسعى بها مفنون لفهم
تناقضات هذا الكون .. التناقض الذي يبرزه (كافكا) بعناد ..
وكذلك فان (إريك مارياريمارك) فردي ذاتي تشغله
المشكلة فلا يزغق طالباً الحلول ومدكراً بالنتائج .. إنه يقف
في هون مشيراً بيده في بطن الحدث ، والغا بأمعائه .. مطالباً
المتذوق أن ينفعلي معه .. أن يدرك العمق .. أن يسهم بابتداع
أقيسة وادراكات جديدة .. أن يشارك الفنان بالتفكير ..
فليست مهمة الخالق أن يُجلي المشكل ، إن عليه مهمة الخلق
وحدها .. أما عمل المتذوق فهو إتمام عمل الفنان وإحكامه ..
الأثر الفني لا يحتاج جمالية خاصة : ولكي يكون أثر ما

جميلاً يجب أن يكون حقيقياً بمعنى أن يصدف عن التزويق
والتجميل ، وان يترك « مصباح علاء الدين » الذي يحل له كل
معتقداته والذي هو « القدر » : الدمية القادرة على كل شيء في
فننا العجيب .. فهو الذي يفكك الحوادث وهو الذي يربطها
في نزق سخيف ، وبإمكان خارق ..

على أننا قد نتصور أثراً ما كان كل جهد مبدعه أن يشكله
جميلاً يتفوق .. فأفروديت الالهية كاملة النسب الجمالية ،
ولكنها ليست حقيقية .. ! إنها متخيلة لا تصمد ثانية واحدة
أمام (مفكر) رودان .. إنها تنسحب بزراية لتموت . ذلك
لأن (المفكر) حقيقي و (أفروديت) خرافة ..
إنها تدهشنا وتستهويننا .. ولكنها لا تحظى باحترامنا ..
برغم تلك الأناقة فيها ..

الفنان لا يرهص أثره لفرض جمالي بحت : انه يتكلم عن
طحالب البحيرة .. أو عمق السماء أو سكينه الوديان .. فيسكب
كل نبلة النفسي في أثره الحقيقي .. يتحدث عن النجوم والنساء
والربيع .. الحب والبطولة على أنها أعراض موجودة حقيقية .
ولكن (أوتيلو) لا يهز فينا حاسة جمالية لانه يروعنا
بصرخاته المليئة بالغيرة .. فالآثار التي تتحدث عن عواطف
خسيسة ، محرومة من الجمال ، ولكنها لا تسقط من حساب الفن .
إننا لا نهمل (أوتيلو) أو (الملك العجوز) (١) . إنها
يتملثان حينئذ بالحياة .. إنها يهزان فينا شعورنا بدقة الوهم ..
وكلما كان وهم الشخص ضبابياً كلما عظم الأثر قيمة .
وكذلك نستطيع أن نعد كمال الآثار المشهورة بطابعها
الآسي والعنيف معبراً عن روحها لأنها حقيقية .. ولأنها تعطينا
وهم الحياة المستبدل ..

ولماذا لا يوثر فينا سجن (فابريس) (٢) ، كما يهزنا بعنف
سجن (بافل) (٣) ؟ إن (فابريس) ليس جاداً . إنه يهوشنا
كما يفعل فارس إسبانيا الهزيل بطواحينه .. يملأ الدنيا بصراخه
في فردوسه ذي القضبان .. ويعشق حتى الوله ابنة السجنان ،
ويرسل الاشارات البعيدة لحالته الجميلة .. سجن غير محكم ..
بعيد عن الصدق .. بعيد عن سجن الظلام .. سجن إناء
الافراغ .. والجدران السود التي امتلأت بالصلوات والأدعية

(١) لوحة للمصور Roualt

(٢) بطل (ديربارم) لستاندال

(٣) الأم لكسيم جوركي

والشتائم .. سجن العفونة والرطوبة: السجن الحقيقي .. وهكذا
 بأسرنا الصدق مها تفة .. ويثرون الافتعال مها غزر ..
 الفنان ينتج أثره بدافع واحد : الرغبة في التعبير .. فلو
 كان الأثر المنتج متأثراً بدافع آخر ، لوضح توأ .. كما تتضح
 آثار (جوركي) الزاعقة بالاصلاح : لقد عبر (جوركي) عن
 مجتمعه المريض مادياً لأنه يريد له تقويماً .. فالاصلاح هو
 مطلبه ، ويعده بعض النقاد داعية أكثر منه أديباً ..

والرغبة في التعبير تدفع الفنان لاتخاذ حيطتين : فإذا كان
 الموضوع خاصاً بناحية جمالية صرفية : إنشائية أو بلاغية
 فإنه يجبر بالافتعال الذي يدفع الصنعة بقلبه الذي لا يُرد . اما
 إذا كان الاثر حقيقياً فهو لا يعنى بانتقاء قيم جمالية أو ترويقية ..
 ويكون طابعه الصدق الخالص . والضرورة التي تدفعه لتجري
 الحقيقة المبدئه هي التي تفرض نتاجه على الأذهان فرضاً
 ساحقاً .. ولكن أبعاد واجباً اكتفاء الأثر بالصدق ليكون
 كاملاً؟!!

الواقع أن آثاراً من اشد الآثار الفنية بعداً عن الحقيقة
 خالدة خلوداً عجبياً ؛ فكل هذه السنوات تنصرم وما زالت
 « الكوميديا الالسيه » تحتل مكانها الفني بالصدارة ، وحتى
 « لافونتين » الذي زعموا موته الأديبي ، لم يزل صامداً هو
 ورفيقه « كريلون » . إن الذي يدهشنا ليس وجودهما
 البحت ، بل تجددهما المستمر . انهما يتطوران معنا كما يتطور
 (الديكاميرون) . فحيثما توجد نساء وحب ، فهناك (بوكاشيو)
 خبيث ، يبيس وينظم حباله الشريرة بأصابعه النارية .. ولكن
 ما الذي يهزنا حقاً في هذه الأعمال؟

أعتقد أنها تعبر عن حالات موجودة بمجتمعنا الحديث ،
 وها قدمرت السنوات ولم يمتدد التردد في هاملت . ولالقدر في
 (أوديب) . ولالشر في (فاوست) .. وواضح ان معظم
 مآسي الحب (كأدولف) و (فرتر) تحتفظ بمكانتها لأنها
 حدث متكرر دوماً .. تعيش كما تعيش (مرتفعات ودرنج
 ومانون ليسكو ورسالة من مجهولة) : التي أحسبها تحل مدى
 الدهر ..

الصدق لازمة للاثر الفني ، فأعمال خالية منه يتوفر فيها شيء
 آخر : صنعة مجلوة ، حدث خرافي .. حب عجيب .. طرافة
 مسلية ..

ولكنها لا تمس الحدث العادي السائد في حياتنا المعاشة |.

إنها تفتش عن الغرابة .. تعنى باللمعة الوضاعة ، ولا تعنى
 بالذباله الصادقة .. وهناك أثر حقيقي وجميل .. عُني بصنعتة
 وبحقيقته كحلبة السباق (لديجا) و « فنلانديا » (لسيليليوس)
 و « أنا كارنينا » لتولستوي .. وهي قلم عظيمة خالدة ما عاش
 البشر .. وكذلك فان جهد الفنان الضافي بالاستخلاص الحقيقة
 وتطعيمها بالصنعة الفنية هو الذي يكاد يصل بالأثر الفني إلى
 الخلود التام .. فان (أولمبيا) مانيه خالدة ، ولكن (الطاحونة
 الحمراء) للوتريك أخلد ..

الفن يتأثر بالمجتمع ، ثم يؤثر به .. فمن أغاني شعراء الطريق
 وأنشيدهم المتفرقة تجتمع ذخر (هوميرو) في إلياذته وأوديسته ..
 ثم أثرتا بدورهما في شعراء القرون التالية برمتهم .. ومن رقصات
 القوزاق وأغانيتهم تجتمع لدى « مسورسكي » و « بورودين »
 نبعهما الصافيان ، وتأثر بهذين العملاقين أساتذة معاصرون
 « كبروكوفياف وخاتشاتوريان » .

الفن تكوّن بطيء يجري بأغوار المجتمع ، لا يكتشفه إلا
 العبقرى المجدد .. يستخلصه من العمق الدفين للنفس البشرية ..
 على أن موضوعاً خرافياً قد يستهونا بشدة (كالسندباد) ..
 ولا نستطيع نسبه للعالم المحسوس .. إنه يثير فينا استغرابنا ..
 بدهشنا .. ولكنه يحظى بسخطنا خلال هزئه بعالمنا . إنه يحيل
 المشاكل الجدية بقدرته الساحرة أكواماً من الممكنات السهلة
 تناسب من بين يديه . إننا نهرب من حياتنا القاسية حين نطالع
 (علاء الدين) : القدر طوعه ، وفي جيبه خاتم يحل له المشكلات
 وهو جميل كالعداري .. خبيث كالشياطين .. وعلى الجملة فهو
 محاولة ساذجة خلقت (سوپرمان) شعبي ..

ليس هناك أثر فني ساقط . إنما هناك عمل يؤثر وعمل لا
 يؤثر .. والسقوط أو النجاح يعزبان الى الاثر بالنسبة لفشله
 أو قدرته على التأثير .. لا لعظمة خاصة أو تميمة سحرية تكمن
 فيه .. وإلا فما هو وجه الغرابة في حينا (فالسكاف) وكرهنا
 (ياجو) .? إنها يؤثران فينا .. لا يدهشانا .. بل يؤكدان
 انفعالنا .. ومن هنا سر خلودهما .. على أن هناك « رؤوساً
 تستبدل » (١) و « أنوفا خارقة » (٢) لا تهز فينا إحساساً ولا
 شعوراً . إن عالم (توماس مان) لا يهزنا ولو أمطرت كواكب
 الشياطين . إنه عالم خارق . غير حقيقي ..

(١) توماس مان

(٢) جان بول سارتر

نورتنا.. هناك!

وانحرج «الوحش» وخلّ معصمي
راسفأً بالقيد، نضاحَ الدم
وتقحّم بطشة السفاح.... ها:
مصرع الاوغاد والبغي الظمي
ودع الاصفاد تدمي قدمي
وغرّ الاغلال تحسو معصمي
ياخا نخوة في صولتها
تتحرّى عن شطايا الضرم
انا منك اليوم أرعى منزفي
وأداويه بجمر البلسم
ولدى خفق ضلوعي صعقة
هددهتها نهشات الالم

ازف الموعد، والدينا لظى
وقذيف النار رّعاف الفم
ثورة التحرير منا انفجرت
ألتى القربان ... للمعتصم
زمزمات الثأر في اصدائها
تتحدى الهول بالويل الهمي
سوف نذروها غداً عبر السرى
جثة الباغي ونعش الضم
تتفرّى جيفة فوق الثرى
وُيساقى نتهها عرس الدم
نحن لبينا الصدى فانقضت
في ربي الشرق سرايا الحرم
ونداء البعث ... في أعراقنا
يتشهى عصفة المنتقم
وصديد الجرح أزكى عبقة
من فحوح الورد ... للملتهم
كلما سحّت ضحايانا دمأً
ناح والغربان ليل المجرم
فاسلمي يا ثورة المغرب لن
يستكين الحر، لا تستسلمي

علي الحلي

بغداد

ليست الغرابة هي التي تؤثر في انفعالنا بالفن ، فأثار من أشد الاعمال بساطة قد دُمغت بالخلود، ولكننا لا نستطيع أن نقول - بالتبعية - أن البساطة هي كل الفن ، على أن مشهداً يستطيل ليؤكد هذا الرأي : وهو اندحار (تاكرى) و (براوننج) وأصحاب مدرسة التكثيف الفكري والتعميد اللفظي ..

لا نستطيع تقنين الفن أبداً، ومن هذا يتضح تقلل مركز النقد - فمفهوم اليوم الذي جهد النقاد حتى ثبتوا دعائمهم ، قد يقذف به الى الطين خالق شاب بنظرة مغايرة ..

على أن النظرة العامة للفن تعمق غوراً على مدى السنين وملاحظة عابرة للموضوعات المرسومة أمس توضح المعنى : الصعود . الربيع . مريم المجدلية . عذارى باخوس !!

كانت الموضوعات تعالج بسطحية تامة ، باهتمام فائق بالالوان والاضواء وقواعد المنظور .. ثم النسب الحارقة لتكوين الملائكة .. أما اليوم فيسهم «بيكاسو .. وثيون ..» بمعالجة العمق العميق من النفس البشرية ، وتضاءلت قيم الابعاد والامتدادات والظلال .. واهتمّ بالبعد الزمني ، وبتكثيل الحركة نفسها خلال تثنيات الخطوط وانكساراتها .. إن الفن يصح بشرياً .. يتجه للانسان .. ويترك الميتافيزيك ..

الفن لا يتوقف على قيمة .. فليس هو علماً . إن التصوير بالكاميرا علم : لانه (تكنيكي) بحيث .. نستطيع ان نقننه : فيجب أن تكون في وضع كذا ، وعلى مسافة كذا .. وبسرعة كذا .. لكي تصور راقصة ما . ولكن هذه القيود تنتفي عند المصور الذي لا يطلب منه سوى وضع اللوحة على الجدار ..

إنسانية الفن هي القيمة الواحدة التي يهتم بها .. فقد ذهب الزمن الذي كان كل جهد الموسيقى فيه أن تطرب حتى الانتشاء أباطرة ودوقات يطعمون حتى الاكتظاظ ، وكان جهد الأدب فيه أن يصور .. وجهد التصوير فيه أن يجمل الكنائس والكاتدرائيات ..

إننا نحتاج الفن البشري الذي يتحدث عن الشيء الواحد الذي يملأ هذا الوجود ..

وهو الانسان ..

محي الدين محمد

القاهرة